البعث الجديد

(كاتبة هذه الخطبة الآنسة النابغة ماري زياده كتبتها بالعربية ثم بالفرنساوية وتليت بهذه اللغة في الحفلة التكريمية التي اقامها طلبة الفلسفة لجناب الكونت دي جلارزا المستشرق الاسباني استاذ الفلسفة في الجامعة المصرية حين انتهائه من تدريس تاريخ المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان . وقد اقيمت الحفلة في حديقة فندق شبرد برآسة سمو البرنس حيدر فاضل وحضرها نخبة من العلماء والعظماء وطنيين واجانب . وخطب فيها بالفرنساوية جناب الكونت بروزور (١) العضو الروسي في صندوق الدين ومؤسس جامعة الشعب ورئيس الشرف لها فجاء في خطبته ان اسبانيا التي تلقت في الماضي الشرارة الفلسفية من العرب قامت اليوم تعترف بالجميل وكما هي تبعث « بشعاع شكرها » مع الكونت دي جلارزا الى ابناء العرب)

يقول الفرنسويون ان اسبانيا لم تبعث اليهم الا ملكات صالحات . اما نحن ايها السادة فقد عرفنا اسبانيا وقد اعجبنا بها . عرفناها بمن اعطتهم من بنيها للعالم الروماني من فلاسفة وشعراء وفقهاء وخطباء وامبراطرة . عرفناها بآدابها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة . وعرفناها بمساعدتها لذاك المقدام الباسل الذي ركب من البحر جواداً حروناً وما عاد من الشواطىء المجهولة الا وقد اكتشف للعالم القديم عالماً جديداً ، كريستوف كولومب

عرفناها بتاريخها الطويل الكثير الحماسة ، الكثير الجهاد . عرفناها بما طوي عليه الروح الاسباني من الفروسية وطيب العنصر ، من علو الهمة ودماثة الخلق ،

---

(١) يجمل بنا ان نشير هنا الى امر لا علاقة له بموضوعنا ولكنه اشتهر به هذا الاسم الروسي بين المشتغلين بالعلوم الروحية . فان الكونت بروزور نجلاً يعتقد اتباع الثيوصوفيا انه امتاز بعض المواهب الباطنية الى حد صار يرى عنده شكل الجسم النجمي او الهوائي والزاد الانفعالات فيه على اختلافها . وقد اثبت ليدبتر الكاتب الثيوصوفي تلك المشاهد بالوانها الدقيقة في احد كتبه الشهيرة قائلاً انه رسمها طبق اشارة موريس بروزور وباطلاعه . وهي واحدة المثال من حيث غرابة نوعها

من توقد الفكر ودقة الفهم. وعجبنا بما فُطر عليه الاسباني من التضحية في سبيل الوطن والحب الشديد للحرية والاستقلال

الاَّ ان لاسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة المصرية لانها اعطتنا استاذاً من امثل بنيها ، وهي حسنة لا تقابل الاَّ بجميل الثناء. فلنحيِّ اذاً اسبانيا الكريمة الجميلة في شخص استاذنا الاسباني ، ولنحيِّا في شخص ممثليها الفاضلين دون كريستوبال فالين وسنيو دي كاريراس ! (١)

***

أيها السادة :

كان الظلام مخيماً على الافكار . كان اسم فرجيليوس ضائعاً بين اسماء المشعوذين ، واسم فيدياس وبراكسيتيلس نسياً منسياً يوم صاح دانتي صيحة ما لبث ان اتبعها بترارکا وبوكاشيو بصيحات متعددات . روح النبوغ التي ظلت تتنقل صامتةً في نفوس الافراد في خلال القرون الوسطى هبطت على شعراء ايطاليا مطلقة ألسنتهم ، فكان شعرهم عويلاً وتهليلاً ، يأساً ورجاء ، خاتمةً لعهد مضى وفاتحةً لعهد جديد

يومئذٍ ، بين جمهوريات مستعبدات وولايات ثائرات ، كانت روما مضعضعة الاركان ، لا تضع تاجها على رأس ملك من ملوك الغرب حتى تهدّد أسوارها جيوش ملك آخر . لكن صوت الارتقاء لا يخفت مهما علت حولهُ أصوات معاكسات . ايطاليا التي كانت تمزقها الاحقاد والاطماع تمزيقاً ، ودماء صفوة بنيها تُراق على شفار السيوف ، بينا حصونها تتداكّ تحت لعلعة النيران دكاً — ايطاليا الخالدة ، لم يعد لها الا نفس ضروبة طامحة الى بلوغ الاقدار الخطيرة ، لدى انين قيثارة الشاعر

موجة حياة جديدة تولّدت في ارض المدينة اللاتينية وما كان حتى استفاضت على اوربا بأسرها . لم تلمس في بادىء الامر الاَّ الطبقة العليا ، ولكن ما عتم ان ادخلها اختراع الطباعة الى نفس العامة . فتغلغلت مع الكتاب بين طبقات الشعوب جميعاً

(١) دون كريستوبال فالين وسنيو دي كاريراس هما سفير دولة اسبانيا ومعتمدها السياسي وقنصلها في العاصمة . وكانا حاضرين في الاحتفال

ثورة مباركة استمر لظاها في جميع فروع الفكر الانساني . فصارت الفنون تحتذي بدائع المدنيتين الاغريقية واللاتينية ، مضيفة الى جمال الاصل جمالاً كمن في الارواح ، تحت طيات الالم ، مدة الف وخمسمائة من الاعوام . أخذت شجرة الآداب تزهر اطيب الازهار . انقلب علم التنجيم الى علم الفلك فانهدّت قبة السماء الخيالية وسمع حفيف الافلاك في ابراج اللانهاية . قامت العلوم على تعدّدها تتسع باكتشافاتها وتتقوى بخبرتها ، طاردة ما عثرت عليه من خرافات واوهام وشعوذة . رُفع افلاطون المجهول يومئذٍ الى عرشه السامي باسطاً على النفوس جمال فلسفته الشعرية . وذلك العهد المجيد عهد احياء الفنون والعلوم والآداب دعي عهد الانبعاث أيها السادة

تاريخ القرون الوسطى ، الذي انتهى في اوربا بابتداء القرن الخامس عشر ، يكاد يمتد عندنا الى اواخر القرن التاسع عشر . الا افراداً فكّروا في وحدتهم منعزلين عن محيط بينهم وبينهُ أبعد الغربات وامرّها ، غربة الروح . فتركوا لنا في كتاباتهم آثار نبوغهم . آثاراً اذا ما استجوبناها الآن عجبنا من تغلّبهم على كل حائل في سبيل العلم واخذتنا هزة الاشفاق عليهم لانهم كانوا يستحقون السعادة ولم يسعدوا

واذا استثنينا فئةً صمت منها المطالب فشغفت بفكرة الارتقاء ، أليست هذه السنوات الاولى من القرن العشرين اشبه شيء بعهد القرون الوسطى نظراً الى حالة العامة ؟ .. الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع في ربوعهِ الخرافات والشقاء ! ولا اظننا ننتظر اختراع الطباعة كي ندخل اشعة الفكر مع الكتاب الى تلك النفوس النائمة . ولكن ننتظر التعليم الاجباري ، ننتظر عمل المدارس ، الابتدائية منها والعليا ، ننتظر الوقت ابا العجائب ، ننتظر زيادة غيرة في الرؤوس المفكرة وزيادة تحفُّز في الهمم النهاضة كي نسير في طريق فوز ميمون الى عهد جديد ، يخرجنا من ليل القرون الوسطى الى نهار البعث العتيد !

اشتهر احد الرومان بكلمةٍ رددها سنوات متعددات وهي : « فلنهدم قرطاجنة ! » . وفي نفس الفئة الراقية عندنا امنية ثابتة وهي : « لنهدم الجهل ! » المدائن تهدم بتقابل المدافع ، واما الجهل فظلام ، والظلام لا يهدم الا بتغلّب النور النور ! النور ! نريد النور دائماً وفي كل مكان ! نريد ارتفاع النفوس الى

أوج تفهم عندهُ جمال الرجاء ، جمال الاشفاق ، جمال الواجب وجمال الخير ! تريد ان يفهم الرجل كرامة المرأة ، وان تفهم المرأة كرامة الانسانية ! تريد ان نعرف ذلك العبودية كي ندرك عز الحرية ! تريد ان نكسر قيود الارغام كي نقيد ذواتنا اختياراً بواجبات سامية . نعلم ان قيود الحرية اكثر من قيود الظلم عدداً ، وأدقّ نوعاً ، واوجع وطأة ، ولكنّ في قيود الظلم اذلالاً يسحق الشخصية هابطاً بالانسان الى تحت درجة الانسان ، وفي قيود الحرية عزة تعلو بالمرء الى قمة العظمة فتصيّرهُ انساناً كاملاً ، يقوى على النظر ملياً في وجه الانسانية المجاهدة قائلاً : « انا ابنك وقد صيرني جهادي أهلاً لهذه البنوة المقدسة ! »

***

أيها الاستاذ الكريم

نحن جزء من الفئة التي ذكرنا . ولقد صدق فينا مثل اهل « اليونا » الهندية القائل : « اذا استعد التلميذ جاء الاستاذ » . في الساعة التي نقف فيها نفوسنا حائرة عند ابواب المستقبل تتجاذبها عوامل الشك والرجاء فتدفعها حيناً وتحجبها حيناً — في هذه الساعة الجليلة من حياتنا الادبية ، نراك عاملاً يداً بيد مع اساتذة جامعتنا الافاضل ، ومع نفوس غيورة اخرى تعمل لنهضتنا بالسكوت وبالقلم وباللسان ما استطاعت الى ذلك سبيلاً

انت الغريب عنا جغرافيًّا نراك من اكثر الناس اهتماماً باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن ان يكون المحسن غريباً ؟

نراك ساعياً الى انهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقاً يقودنا الآن فيها ، وجال في احنائها ومطاويها فوقف على ما يملأها من مجد الصعاب . وهناك في قاعة الدرس الصغيرة حيث يدخل شفق الماء على عجل ، وتسرح المصابيح سريعاً ، كم استحضرت اشارتك الواسعة نوابغ الاجيال ، بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد تنم الذرى العقلية . فسردت مذاهب المتقدمين باسطاً اقوالهم عند آرائهم ، شارحاً ما لامس منها الاعجاز آتياً بالنقد عليها ملخصاً نقد الناقدين . ذلك بسلاسة وايجاز تكسوهما بلاغة عبقرية ، قد تكون انتهت الى الاصباني كروث شيشروني

وبينا يبانك يزيح حجباً ضُربن بين المعاني والافهام اذ تثب منا النفوس مطلات على آفاق جديدة. فيلحقنا عطش العلم، وتأخذنا رغبة السؤال. وروحك الكبيرة العالية منهل نور وحكمة، كلما استقينا منها معرفة وضياء زادت تدفقاً، وتدفقت سخية، وديعة، صافية، يتألق في موجها حب العلم وحب الكمال

اليوم عيد شكرنا. ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان ساعات تفيض بها علينا في هباتك، فاننا نذكر بتهيب ساعات اخرى كثيرات لا نسمعك فيها ولكن نعرفك في غيابك عاملا لخيرنا. تلك ساعات العزلة اذ يختلي الاستاذ بنفسه مهملاً ضوضاء العالم. ساعات سكوت وتأمل تجعل الفيلسوف عميقاً كالبحر، لا تقلقهُ العواصف ولا تكدرهُ الدلاء

نراك منحنياً على كتب كثيرة تتصاعد من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية. تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة. وتقارن بين اسلوب واسلوب، وتعبير وتعبير لتنقل الى لغة العرب حكمة شقيقتيها في المجد والقدَم، ومناظرتيها في الفصاحة والغنى: الاغريقية واللاتينية. لكنهما، على شهرتهما، لم تنتشرا انتشارها. ارتفعتا حيناً الى اوج الحياة والعظمة ولم يكن ان هبطت كلٌ منهما مع مدنيتها. اما اختهما الثالثة، لغة مكة والحجاز والعراق، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدها كر الدهور الاَّ فتوة وجمالاً، لان لغة القرآن لغة خالدة.

اننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة، ونستزيدك منها لاننا في حاجة الى ثروتها في نفسك، وفي حاجة الى نتائجها الجليلة. ولئن استشعرنا بما تجدهُ من العناء الكثير بقرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد، فاننا نعلم كذلك ان من كان مثلك ما الهمتهُ الحوائل الاَّ همة ونشاطاً، وما زادتهُ المسؤولية الاَّ توهجاً واخلاصاً. واللغة التي احببتها وانزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكتَ اعنة الكلام فيها سوف تجازيك جميلاً، سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات، سوف تفتح كتابها الذهبي لك، وتضم اسمك الى اسماء ابنائها الخالدين! عاش السكوت دي جلارزا! عاشت الجامعة المصرية! عاشت نهضتها الحديثة!

(يتبع)

(وقد شكر جناب الكونت دي جلارزا المحتفلين به بالعربية والفرنساوية ، ووقفنا على كلمته الفرنساوية فننشرها هنا بحلتها الغربية :)

Mesdames et Messieurs,

Je suis profondément touché par les discours pleins de bonté et d'enthousiasme qui m'ont été adressés, et par l'honneur que vous m'avez fait en assistant à cette fête que les étudiants de philosophie de l'Université Egyptienne donnent à leur professeur. Rien ne pouvait m'être plus doux que cette manifestation si spontanée dans laquelle je me trouve généreusement confondu par mes élèves avec la philosophie que j'adore. Cependant, je le sais bien, c'est à elle, à elle seule, que vont toutes les louanges car le visible se trouve ici transfiguré par le sincère élan des cœurs.

Ce n'est pas seulement dans un jardin d'Egypte que nous nous sommes rassemblés, c'est dans le domaine de la vertu qui est au dessus des conditions d'espace et de temps. Je vois à cette fête l'Etre Unique reflété en toutes nos personnalités qui se mire dans l'amour de la Sagesse. De belles vertus s'entrelacent devant nous : nous voyons l'aimable hospitalité Arabe, le noble esprit de gratitude, l'élévation de la pensée Orientale qui regarde le monde du point de vue de la théologie; et nous voyons aussi l'esprit d'union qui réunit les hommes de bonne volonté malgré les frontières variables des peuples.

Des Egyptiens, et parmi eux des étudiants d'Al-Azhar, ce centre de l'enseignement Islamique, communient dans l'Idéal avec un frère venu de très loin pour nous prouver que, derrière le voile des choses, la Vérité Sublime est Une. Je lui ai donné ma vie, et en entendant l'appel que ces jeunes étudiants adressent à la lumière je suis bien heureux, car je puis porter leurs vœux à travers mon âme vers la Divine Sagesse et penser à Elle en disant merci, merci toujours ..